القصص الديني

الحلقة الأولى

قصص الأنبياء

ناقة صالح

٥

عبد الحميد جودة السحار

١

بعد هَلاكِ قبيلةِ عاد ـ قومِ هود ـ لم توجدْ قبيلةٌ مثلها قوية غنية ، إلى أن ظهرتْ قبيلةُ ثَمود ، فى شمالىِّ بلادِ العرب ، فى جِهَةٍ تسمَّى الحِجْر ، وهى بين المدينةِ المُنَوَّرة والشَّام .

هذه القبيلةُ كانت تعيشُ فى وادٍ خصيب ، تنْبتُ فيه الحدائقُ المثمرة اللطيفة ، والمزارع الخُضرُ الواسعة ، وبساتينُ النَّخيلِ التى تمتدُّ مسافات كبيرة ، وتطرح بلحا ، وتمرا لذيذا حلوا سريعَ الهضم .

وقد بَنوا القصورَ فى أرضِ الوادى ، ونحُتوا فى الصَّخر فى الجبال المحيطة به بيوتا كاملة ، كلُّ حوائطها وسقوفها وأراضيها صخْرٌ متِين ، لا يتهدَّم ولا يتحطَّم .

وعاشُوا عيشةً ناعمةً فى رغَدٍ وهناءةٍ فترةً طويلة ، حتى نَسُوا اللّه الذى أعطاهُم كلَّ هذه النِّعم ، ونَحتُوا من الصُّخور أَصناما وعبدوها ، واعتَقَدوا أنه ليس هناك آخرة ، ولا ثوابٌ ولا عقاب ، وأفسدوا فى الأرض وضَلُّوا .

عند ذلك أرسَل اللّه إليهم رجلا منهم اسمه صالح . وكان رجلا طيِّبا عاقلا ، وكلُّهم يعرفونَه ، وذلك ليُرشِدَهم إلى عملِ الخير وتركِ الظلمِ والفساد ، وعبادةِ اللّه وحْدَه ، وتركِ عبادة الآلهةِ الكاذبة التى يعبُدونها من دونِ اللّه ، لأنَّ اللّه هو الذى أعطاهم كلَّ هذه النِّعَم ، وجَعَلَهم أقوى قبيلةٍ وأغناها بعد عادٍ قوم هود ، الذين هلكوا عندما عَصَوا اللّه وكفروا بنعمته .

٢

جَمَعَ صالِحٌ قومه وقال لهم :

ـ يا قوم اعبُدوا اللّه ما لَكُم من إلَهٍ غيره ، واذكُروا إذْ جَعَلَكُم خُلَفاءَ من بعدِ عاد ، وبَوَّأَكم من الأرضِ (أى أعطاكم الأرض) تتّخِذونَ من سهولِها قُصورا ، وتَنْحِتون من الجبال بيوتا . فاذكُروا آلاءَ اللّه عليكم (أى نِعَمَ اللّه عليكم) ولا تَعْثَوا فى الأرض مُفْسِدين (أى لا تفسدوا فى الأرض) .

قالوا : يا صالح ، أتأمُرُنا أن نترُكَ عبادة الآلهة التى وجَدْنا آباءنا يعبدونها ؟

قال لهم : إنَّ هذه الآلهة لا تعطيكم شيئا ، ولا تأخذُ منكم شيئا . فكيف تعبدونَها وهى لا تضرُّكم

ولا تنفَعُكم ؟ ألا تفكرون بعقولكم قبل أن تعبدوا ما كان يعبدُ آباؤكم ؟

عند ذلك آمن به جماعةٌ من قومه ، وهم من الناس الفقراء الطيبين ، الذين لا يتكبَّرون ولا يعاندون ، أما الأغنياءُ الظلَمة فقالوا :

ـ يا صالح ، لقد كنّا نحترِمُك قبل أن تقول هذا الكلام ، وتطلبَ منا أن نتركَ آلهتنا وآلهة آبائنا ؛ ولكن خاب ظننا فيك ، ولا بد أنك أُصِبْتَ بالجُنون .

قال : يا قوم إننى لست مجنونا ، وما أريدُ إلا هِدايتَكم ، فاتقوا اللّه وأطيعون ، وما أسْأَلُكم عليه من أجر ، إنْ أَجْرِىَ إلا على ربِّ العالمين . وقد آمَن الناسُ الطيبون ، فلماذا لا تؤمنون ؟

قال الملأُ الذين استكبَروا من قومه ، للذينَ

اسْتُضْعِفُوا و آمَنوا منهم : أَتَعْلَمُونَ أنَّ صالحا مُرْسَلٌ من ربِّه ؟

قالوا : إنَّا بما أُرْسِلَ به مؤمنون .

قال الذين استكبروا : إنا بالذى آمنتم به لكافرون .

٣

ولم يسْكُت صالح ، فكان كلما قابلَ واحدًا أو جماعةً من قومه يُرشدُهم وينصحهم ، فبعضُهم يؤمن ، وبعضُهم يكفُر .

وكان الكفارُ يقولون للمؤمنين : هل تظنُّونَ أن الكلام الذى يقوله صالح صحيح ؟ وأن هناك إلَها يُحيينا يومَ القيامة بعد أن نموت ، ويحاسبنا على أعمالنا فى الدنيا ؟ لا .. لا تُصَدِّقوا ، فإننا لا نعيشُ

إلا مرةً واحدةً فى هذه الأرض ، فإذا متنا فلن نحيا مرةً أخرى .

كذلك كانوا يقولون لهم : لا تصدِّقوا صالحا فقد كان رجلا عاقلا ولكنه أصيب بالسِّحر ، وأصبح مجنونا ، يقول كلاما غير معقول ، فلا تصدِّقوه .

أما صالح فكان يقول للناس : لا تُطيعوا الأغنياءَ المفسدين المتكبرين ، وتعالَوا معى ليرضَى اللّه عنكم ، ويترك لكم النعمَ التى أعطاها لكم ، نِعَمَ الحدائقِ والزروعِ ، والقصورِ والبيوت .

ولما كثُر الكلام بينهم وبين صالح قالوا له :

ـ إذا أردْت أن نؤمن بربِّك ، فأظهرْ لنا معجزة ، تدل على أنك رسولٌ من عند اللّه ، فكل الأنبياء الذين قبلك جاءوا للناس بمعجزةٍ تدل على صدقهم فيما يقولون .

٤

دعا صالحُ ربَّه أن يعطيَهُ معجزة ، تدلُّ على أنه نبيٌّ ورسول ، وقال :

– يا ربِّ ، إن قومى كذّبُونى ، ولم يؤمن بى منهم إلا قليل ، أما الآخرون فقد سمِعوا كلامَ الأغنياءِ المُستكبرين . فأعطِنى معجزةً يصدقُ بها الجميع .

قال له ربُّه : قلْ لقومِك يجتَمِعُوا عندَ الصخْرَةِ العظيمة خارجَ المدينة . وهناكَ ستظهَرُ لهم المعجزَة ، وستكون ناقةً ضخمةً جدا ، لم يروا مثلها ناقةً من قبل ، ضرعها ملىءٌ باللبن الذى لا ينتهى أبدا مهما حلبوا منه .

ولكن اشترط عليهم شَرطَين اثنين : أن يتركوا لها الماء كله يوما ، ويشربُوا منه يوما ، فهذه الناقة

ستشرب من الماء قدرَ ما يشربون هم جميعا .

وعـاد صـالحٌ إلى قومـه فأخـبرهم ، ودعـاهم أن يخرجوا إلى الجبل ، وينتظروا ظهـور المعجـزة هنـاك ، على الشروط التى شرَطها اللّه عليهم .

فَأَمَّا المؤمنونَ من قومِه ، فقـد فَرِحـوا لهـذا الخَبَر ، وقـالوا : إنَّ اللّـه سيُظهِر الحقَّ ويُؤيِّـد نبينـا صالحـا والذين آمنوا معه .

وأما المستكبرون الكفّـار . فقـالوا : كـلامٌ فـارغ ! وجنـونٌ كـامِل . وهـل يُمكـن أن تكـون هنـاك ناقـةٌ تشربُ هـذا المقـدارَ العظيـم مـن المـاء ، وضَرْعُهـا لا يجفُّ من اللبن ؟ ألم نقُل لكم : إنه مجنون ؟

وأما بقيةُ الناسِ فقـالوا : هيـا بنـا إلى الجبـلِ لـنرَى صِدقَ صالح من كَذِبه . ونتأكّد إن كان نبيًّا مُرْسَـلا ، أم رَجُلا مجنونا .

وخرجَ الجميعُ إلى الصَّخرة ، ووقفوا ينتظرون .

٥

ونظَر الجميعُ فإذا بالناقةِ تخرُج عليهم ، وهي تُحدِثُ رُغاءً عاليا ، وتَسير أمامهم وقد اصطَفُّوا صفًّا طويلا ، وهم ينظرون إليها في دهْشَةٍ واستغراب ، ويَرَوْنَ ضَرعها مليئا باللبن .

وكانت النساءُ قد أحضَرت القُدورَ لحلبِ اللبن ، فتقدَّمت واحدةٌ تحلب حتى يمتلئَ إناؤها ، والضَّرع مليءٌ باللبن كما كان .

ثم قَصَدَتِ الناقة إلى الماء الذي يشربون منه ، فلم ترفَعْ رأسها حتى شربت آخِرَ نقطةٍ منه ، وهم ينظرون ويتعجبون .

عندئذٍ صاح الناس : صدقَ صالِح . صدقَ صالح . إنه رسولٌ من عند اللّه ، وهذه ناقة اللّه .

وأما المتكبرون الكفارُ فقد اغتاظوا غيظًا شديدا ولم ينطقوا بكلمةٍ واحدة ، وازرقّت وجوهُهم من الكَمَدِ والألم ، وانصرفوا .

٦

عاشت الناقةُ العجيبةُ بين قومِ صالح ، تأخُذُ منهم الماءَ يومًا وتتركهُ يوما ، وفى نظير ذلك تُعطيهم اللبن الذى يريدونَه لهم ولأطفالهم ، ولا يجفُّ ضرعُها من اللبن أبدا .

وصالح مسرور ، يقول للناس : هذه ناقة اللّه لكم آية . فَذَرُوها تَأكُل فى أرض اللّه ولا تَمَسُّوها بسوءٍ ، فيأخذكم عذابُ يومٍ أليم .

وكـان فـى المدينـة تسـعةٌ مـن المُفْسِـدين ، يعملـونَ أعمـالا رديئـة ، ويُفسِـدونَ فـى الأرض ، ويشــربون الخمر ، ولا يؤمنون باللّه .

وفى ليلةٍ اجتمعـوا وسَكروا وقـالوا : لا يجـوز أن نـترُكَ صالحًـا وناقتـه هكـذا . فهـذه الناقـة تضايقنـا ، وتأخذ منا الماء ، وتحرِمُنا نِصفه دائما . فتعالَوا نقتُلهـا ونقْتُلْ صالحا وأهل بيته لنستريحَ منهم جميعا .

قال أحدهم : ولكن أقاربَ صالح سـيأخذون الثأرَ إذا نحن قَتلناه .

قال آخَر : هناكَ حِيلَةٌ أُرشِدكم إليها . نقتل الناقـة ونقتُل صالحًا وأهل بيته فى ظلامِ الليـل ، فـلا يَرَونَـنا ولا نراهم بسبَبِ الظلام ، فإذا سألَنا أحدٌ من أقربائـه قلنا : نحن لم نُبصِرْه ولم نُبْصـرْ أحـدًا مـن أهـلِ بيتـه . ونحن صادِقون لأننا لم نبصرهم فى الظلام ، وأقربـاؤه لم يعرفوا من الذى قَتلَه .

٧

وقبل الفجرِ ذهبَ أحدُهم فرمى الناقة بسهم ، فصرخَت صرخَة عظيمة ، فسَمِعها صالح ، فقام من نومه مفزوعا ، وجاءَ معه الناسُ الذين سمِعوا صرخة الناقة ، فهرب التّسعة المفسدون .

ووجد صالحٌ ناقته مقتولَة ، فحزن حزنًا شديدا ، وعرَف أنَّ اللّه سيُعاقب ثمود على فِعلَتِها .

وقد أوحَى اللّه إليه أنْ يَأْخُذَ المؤمنين معه ، ويَبْعُدَ عن المدينة ، لأنَّ اللّه سيُهلِكُ من فيها بعدَ ثلاثةِ أيام .

فقالَ لقومِه : لقد غضِبَ اللّه عليكم ، وبعدَ ثلاثةِ أيام يحلُّ عليكم العذاب .

ولّما انقَضَت الأيام الثلاثة ، سمِعَ الناسُ صَرخةً عظيمةً هائلةً مخيفة ، فارتَجَفوا وخافوا ، حتّى إنَّ

قلوبَهم تَقَطَّعَت وسقطت من الرعب ، وانحنوا على رُكَبِهم من شدَّة الألم ، وماتوا وهم على هذه الصورة .

وبقيت منازِلهم المنحوتة فى الصخور . شاهدةً عليهم ، وعلى ظلمِهم وكفرِهم ، والعذابِ الأليم الذى حلَّ بهم .